



ثقافة الشراكة

الثقافة ثقافة والاقتصاد اقتصاد. تلك هي حدود الوعي السائد في لبنان والعالم العربي لكل من الثقافة والاقتصاد. ففي اقصى الاحوال، لا علاقة بين الحقلين الا علاقة مناسبات او تمويل آني على قاعدة الربيع. اما ان يُنظر الى الثقافة بصفتها قطاعاً منتجاً، فهذا ما يحجم عنه من يعمل في الاقتصاد ومن يخطط له على حد سواء. لكن اهل الثقافة ليسوا اكثر بصيرة، وهم، اذ لا يتحمسون الا في ما ندر لمفهوم الثقافة المنتجة، يتجاهلون ايضاً تأثير المعطيات الاقتصادية على ظروف الابداع، وفي ذلك مفارقة لافتة في منطقة تغذى متفقوها بوفرة من الارث الماركسي.

لكن الامور قد تتغير، وكالعادة تأتي الاشارة من الخارج. وفي هذه الحال، انت الاشارة من توقيع اتفاق الشراكة بين الاتحاد الاوروبي ولبنان. قيل لنا ان الاتفاق الموقع قبل ايام في بروكسيل فيه الكثير من المنافع للاقتصاد، وهذا صحيح رغم ان المسؤولين اللبنانيين لم يفصلوا هذه المنافع. الارجح انهم خافوا من ان يدخل في النقاش من قد يخرب الانجاز مثلما سبق له ان خرب القمة العربية. واذا كانوا قد اختصروا الشرح في وصف المكاسب الاقتصادية، فمن الطبيعي ان ينسوا الفوائد الاخرى. ذلك ان الاتفاق لا ينحصر في الاقتصاد، وتطول مفاعيله الحقل الثقافي.

لحسن الحظ، الطرف الاوروبي لم ينسها، وذكر ببعض منها رئيس المفوضية الاوروبية رومانو برودي. في الحقيقة، هناك منافع ثقافية سبقت توقيع الاتفاق، اذ يشكل الاتحاد الاوروبي، وخصوصاً منذ ان انطلق الحوار الاوروبي - المتوسطي، مصدر تمويل اساسياً لعدد من المنتجين في حقل الثقافة والاتصال. ورغم التحفظات اللبنانية والسورية عن مسيرة برشلونة، لم يستثن لبنان ولا سوريا من سياسة التعاون الثقافي التي ينتهجها الاتحاد حيال بلدان الجنوب. ولا شك في ان الاتفاق الجديد سيضاعف امكانات التعاون، بشرط ان يدرك العاملون في الحقل الثقافي اي آليات يمكن استخدامها في هذا المجال.

غير ان ما ذكره برودي لا يتعلق بالمنافع العملائية، بل بالمناخ الثقافي، او بالاحرى "الحضاري" الذي يمكن ان يفيد منه لبنان بفعل اتفاق الشراكة. تحدث برودي خلال حفل التوقيع عن اشتراك لبنان مع اوربا في ثقافة الديمقراطية وحقوق الانسان. وبالطبع، سارعت نشرات التوجيه التلفزيوني الى اعتبار هذا الكلام شهادة حسن سلوك مُنحت المسؤولين اللبنانيين. غريب، بالمناسبة، هذا الشغف بالشهادات الخارجية، وخصوصاً عندما يكون مقروناً، كما يحصل مع الاولاد الطائشين، بتجاهل كامل للعلامات السيئة التي تأتي بكثرة من المصادر نفسها. في اي حال، ليس رئيس الحكومة الايطالية الاسبق ساذجاً ولا مبتدئاً في السياسة.

وان لم يكن يعرف هو شخصياً السجل الكامل للارتكابات اللبنانية الراهنة ضد الديمقراطية وحقوق الانسان، فان دوائر بروكسيل قادرة على ان تعطيه ملخصاً وافياً عنها، والارجح انها اعطته اياه وانه قرأه. لكن العقيدة الاوروبية تقوم على التحفيز، بل ان فلسفة الحوار الاوروبي - المتوسطي هي ان الشراكة الاقتصادية افضل سبيل لتعزيز المسيرات الديمقراطية في دول الحوض. واذا كان الاتحاد مستعداً لمنح سوريا نفسها فرصة، رغم تباطؤ الانفتاح فيها، فكم بالحري عندما يأتي الامر الى لبنان الذي تدرك اوربا كم هو مغلوب على امره. الرسالة قد لا تكون موجهة الى المسؤولين اللبنانيين



بمقدار ما تعني العاملين في الاقتصاد. فهؤلاء هم المنوط بهم، في الفكر الليبرالي الحديث، مهمة تعميق الديمقراطية. والرسالة هي ان القيم الثقافية الانسانية تسند السعي الى نهضة اقتصادية بدورها تؤسس لمجتمع حر منفتح. يبقى ان تصل الرسالة فلا تعترضها دوائر الرقابة كما جرت العادة. ولكن حتى ان حصل ذلك، سيكون حسناً، اذ قد ينتبه الرقيب عندئذ الى ان مهمته مرشحة للتغيير، وانه سيصبح قريباً ملزماً، صوتاً للقانون والمعاهدات الدولية، ممارسة الرقابة على... نفسه! || بعد توقيع لبنان، باتت كل الدول العربية المطلة على البحر الابيض المتوسط، ما عدا سوريا وليبيا، مرتبطة باتفاق شراكة مع اوروبا الاتحادية. اوروبا تعرف لماذا تقيم هذا النوع من العلاقات: التخفيف من ضغط الهجرة الوافدة اليها من خلال تحسين الظروف الاقتصادية في بلدان الجنوب، توسيع هامش الديمقراطية سعياً الى استقرار هذه المنطقة الاستراتيجية على خاصرتها، بالاضافة طبعاً الى بعض المكاسب التجارية المباشرة. ولكن نحن، هل نعرف ماذا نريد من اوروبا؟

او بالاحرى، هل ندرك ان ما نصبو اليه من فوائد اقتصادية يقترن بنظرة اخرى الى الجغرافيا العالمية، وهي جغرافيا لم نحددها بعد؟ بكلام ايسط، ما الذي تعنيه اوروبا بالنسبة الينا: شريك تجاري فقط، شريك سياسي يمكن الاستعانة به منعاً للمواجهة المباشرة مع الولايات المتحدة؟ ام شريك تاريخي مرت علاقتنا به بالكثير من المنزقات فصار حليفاً بعدما كان خصماً؟ في الواقع، السؤال يعني المثقفين، قبل غيرهم. فالعلاقة مع اوروبا شغلته منذ بداية العصر الحديث، وتحديداً منذ صار التوسع الاوروبي السمة الابرز لحركة التاريخ في المنطقة، وقام الحوار/المواجهة بين ما سماه دومينيك شوفالبيه "غرب لا مفر منه وشرق يقاوم".

بالتأكيد، هذا يتطلب مراجعة لكل مرحلة الاستعمار، وهي مراجعة مطلوبة من الاوروبيين، وقد قاموا بها بالاجمال، وان نكن نشهد بين الفينة والاخرى هبات عصبية تتم عن ضعف استيعاب بعض دروسها. اما العرب، فالمراجعة المطلوبة منهم تقضي بتحرير نظرتهم الى اوروبا من هواجس مرحلة النضال ضد الاستعمار، وخصوصاً في مراحلها المتأخرة. ليس بمعنى التخلي عن قيم التحرر ولا عن ذاكرته، بل على العكس بمعنى استعادة روحيتها من خلال الخروج من صنمية التاريخ. فاذا اقررنا بان اوروبا لم تعد الآخر المعتدي، بات في الامكان مقاربة فكرة الآخر كعامل تفاعل، تماماً مثلما حصل في الفكر النهضوي قبل ان تنزلق مقاومة الاطماع الاستعمارية من اولياتها الانسانية الى احادية شوفينية مسكونة بالخوف من المؤامرة الاجنبية. ولعل هذه المراجعة مطلوبة بالمزيد من الالاحاح في هذه اللحظة بالذات، حيث لا طريق آخر امام العرب للخروج من قعر الاصوليات غير استعادة نَفَس النهضة.

||| رجل نهضة هو انطون مقدسي. منذ عقود وهو يعاند الانحدار في دمشق، اميناً لتراث من الفكر القومي العربي لم يرتض ان تأسره البزة العسكرية، مناضلاً من اجل استعادة الحرية والديموقراطية، مروجاً للثقافة والكتاب، "مرجعاً وموسوعة حقيقية للكثير من مواطنيه"، حسب ما جاء في قرار مؤسسة "برنس كلاوس" الهولندية منحه جائزتها لعام ٢٠٠١. اسباب كثيرة تجعل من "الاستاذ انطون" واحداً من قلة تستطيع وصل نهضة الامس التي لم تكتمل بنهضة الغد التي لا خلاص من دونها. لكن اجملها اختصرها، في حديثه الى محمد علي الاتاسي المنشور في "الملحق" هذا الاسبوع، عندما قال ابن الثمانين انه دائماً ينظر الى المستقبل.

سمير قصير



Id-Reference	02-Pr-000738	
Media	(Support)	HC
Title		ثقافة الشراكة
Subtitle		
Section		مرور الكلام
Language		عربي
Source		النهار
Page		
Date		٢٠٠٢/١/١٤ 14/1/2002
Author		سمير قصير
Co-Author		
Keywords		
	Persons	رومانو.برودي - دومينيك.شوفالييه - انطون.مقدسي - محمد.علي.اتاسي
	Locations	لبنان - اوروبا - بروكسيل - سوريا - برشلونة - ليبيا - هولندا
	Dates	٢٠٠١
	Themes	لبنان - عرب - اتحاد.اوروبي - ارث.ماركسي - شراكة.بين.اتحاد.اوروبي.ولبنان - سوريا - مقاومة.اطماع.استعمارية - فكر.نهضوي - رجل.نهضوي.انطون.مقدسي - مؤسسة."برنس.كلاوس"
Subject		